

## المحاضرة الخامسة عشرة

### الفلسفة الإسلامية: علم الكلام: التيارات الكلامية:

تظهر التيارات التوفيقية في وقت الأزمات لمعالجة هذه الأزمات ، فقد كان الصراع على أشدّه بين التيار السلفي (الحنابلة) والعقلي (المعتنلة) وقد تدخلت الدولة تارة لصالح المعتنلة منذ عهد المأمون والمعتصم والواثق وتارة لصالح الحنابلة أيام المتوكل ، لذا اقتضى الأمر ظهور تيار جديد يجمع مابين التياريين في تيار واحد ، فكان ظهور المذهب الأشعري . فقد أخذ القناعات الفكرية من التيار السلفي ، واستلهم الأدوات المنطقية من التيار العقلي . وكان المجتمع مستعد لنقبل هكذا تيار توفيقى ، ولذا تمكّن من النجاح .

**المذهب الأشعري :** نسبة لأبي الحسن الأشعري الذي يعود نسبه للصحابي أبي موسى الأشعري ، قيل أن أبا الحسن الأشعري كان أولاً معتزلياً لأربعين سنة وكان تلميذاً لأبي علي الجبائي زعيم الاعتزال وقتذاك ، ولكنه دخل في جدال فكري مع أستاذه الجبائي فترك الاعتزال وأسس مذهبًا جديداً عرف باسمه في مسجد البصرة .

**قواعد المذهب الأشعري (التوفيقي) .**

١ - المصدر المعرفي : أن الأساس المعرفي والقانون الخلفي هو ظاهر الشريعة ( الكتاب والسنة ) ، ولا يجوز أن يكون العقل هو المقياس الأول . لماذا ؟ لأن العقل فاقد عن إدراك كنه الأحكام الإلهية ! أن العقل وحده لا يؤدي إلى نصرة الدين ! ثم أن هناك أحكاماً توقيفية لا يستطيع العقل الإجابة عنها ، فلماذا صلاة الصبح ركعتين ، ولماذا على الحاج أن يرمي كذا من الحصيات !

إن القول بأن الشريعة هي المصدر المعرفي هو ما يذهب إليه التيار السلفي ، ولكن التيار التوفيقية لم يترك العقل ، وإنما أعطاه دورا ثانويا وليس مطلقا ، فالشرع أولا ولا بأس من استخدام العقل ولكن بحدود ، وبهذا اقتربوا أيضا من التيار العقلي .

٢ - صفات الله: لما كان التيار التوفيقى (الأشعري) يعتمد ظاهر الشريعة لذا فقد قال بما جاء في الكتاب بان الله له يد ، بل يدان ، بدليل قوله تعالى (ما منعك أن تنسج لما خلقت بيدي) ، ولكن كلتا هما يمين تشاوما من القول أن الله له يد يسار ، وله عين ووجه ونفس فضلا عن اعتمادهم على ما نسب من أحاديث للنبي (ص) : إن قلب المؤمن مابين إصبعين من أصابع الرحمن ، وان جهنم لا تمثل حتى يضع الله قدمه فيها فنقول قط قط ، وان الله يتحرك وينزل من السماء ليلة الجمعة على حمار في الثالث الأخير من الليل .

هذه النصوص أخذت على ظاهرها - تفسير حرفياً - ولا يجوز نفي هذه الصفات لأن ذلك تعطيل لصفات الله لذا لما نفي المعتزلة ذلك سموهم المعطلة . لكن الشيء الذي اختلف فيه الاشاعرة عن السلفية إن هذه الصفات ليست كصفات البشر بل هي صفات تليق بذاته تعالى ، فهي بلا كيف فسموا بـ البلاكيفية . من هنا اثبت الاشاعرة لله سبع صفات أزلية وهي العلم ، القدرة ، الحياة ، السمع ، البصر ، الكلام ، الإرادة .

٣ - رؤية الله : انطلق الاشاعرة من منطلق السلفية بان الله يرى ، ولكن الاشاعرة حصرت رؤية الله في الآخرة وللمؤمنين فقط مستندين لقوله تعالى (وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة) ، وهذه الرؤية بكيفية خاصة لا ندرك حقيقتها ، واستند الاشاعرة على إمكانية رؤية الله بدليل أن النبي موسى (ع) طلب رؤية الله (ربِّي أرني أنظر إليك) ، ولكن موسى لم ير الله وأكَّدَ الله تعالى على موسى أنه لا يستطيع رؤيته ، فقال لموسى (لن تراني) ، هنا يقول الاشاعرة أن عدم الرؤية لا تعود إلى أن الله لا يرى وإنما تعود إلى عجز موسى عن الرؤية . وفي قوله تعالى (لا تدركه الأ بصار) قال الاشاعرة ذلك في الدنيا .

٤ - كلام الله : كان السلفيون يرون أن كلام الله غير مخلوق ، بينما عده العقليون مخلوقا ، فجاء الأشاعرة برأي وسط بين الرأيين ، فقالوا إن كلام الله يقسم إلى قسمين ، الكلام اللفظي وهو

الموجود على المصاحف والمقروء فهو كلام مخلوق ، أما الكلام النفسي فهو غير مخلوق ، وكأنهم أرضاوا الاثنين بتبني هذا القول .

٥ - خلق الأفعال : أراد الأشعري أن يأتي برأي وسط بين السلفية (الجبرية) والمعتزلة الفائلون بحرية الإرادة ، فجاء بنظرية عرفت بنظرية الكسب ، وفحواها أن الفعل الإنساني يقسم إلى ثلاثة أقسام (النية ، القدرة ، الإنجاز(الفعل)) ، فإذا نوى العبد القيام بفعل ما ، زوده الله بالقدرة فيقوم بإنجاز ما نوى القيام به .

لقد جوبهت هذه النظرية بالنقد الشديد ، ومن أشد من وقف ضدها شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني زعيم التيار السلفي في زمانه ، إذ لم يتضح من المسؤول عن الفعل هل هو العبد أم الله أم كلّيهما؟ ولذا ضرب المثل بخفاء مفهومها فقيل ((أخفى من كسب الأشعري)).

٦ - الوعد والوعيد : ذهب الأشاعرة أن الله حر في أن يفعل ما يشاء بخلقه ، فيدخل المؤمنون النار ، ويدخل الكافرين الجنة ، ويعذب الأطفال ، كل ذلك منه عدل لأنه صاحب الملك ويتصرف بملكه كيما يشاء ، ((لا يسئل عما يفعل وهم يسألون)) .

ومع أن التيار الأشعري لم ينجح في جمع التيارين السلفي والمعتزمي في تيار واحد (أهل السنة والجماعة) ، ولكنه نجح في استقطاب الجماهير لأنها وجدت فيه تيارا وسطا بين ظاهرية وجمودية التيار السلفي ، وعقلانية المعتزمي التي تنفر منها العامة ، لذلك أصبح التيار الأشعري التيار الأكبر في الوسط الإسلامي واستفادت منه الحكومات وغدا المذهب الرسمي في الأصول عند العباسيين والأيوبيين والمماليك والغزنويين والموحدين ، وما زال إلى اليوم هو التيار الأكثر نشاطا . بينما ضعف التيار السلفي وانتهى المعتزمي .

وكان من أسباب نجاح المذهب الأشعري :

١ - قدم آراءه بصورة بسيطة ومقبولة بين جمود السلفي وعقلانية المعتزمي .

٢ - استعداء الدولة على المعتزمي فطاردتهم وأحرقت كتبهم حتى أدى الأمر لزوالهم .

٣ - تقريب الساسة لرجالات الأشاعرة بعد أن اعترف الأشاعرة بشرعية أولئك ، فغدا المذهب الرسمي لكثير من الدول .

٤ - قيض للأشاعرة رجالات أخذوا على عاتقهم نشر المذهب الشعري كأبي الحسن الأشعري والباقلاني والغزالى والجويني .

٥ - إنشاء الوزير نظام الملك السلجوقى المدرسة النظامية التي أولت أهمية لنشر الفكر الأشعري .